# السيطرة العثمانية على الوطن العربي

## أولاً- المشرق العربي قبيل التوسع العثماني:

في مطلع القرن السادس عشر كان العالم الإسلامي (غرب آسيا) موزعاً بين ثلاث دول تنازعت فيما بينها زعامة الإسلام، وهي: الدولة الصفوية الناشئة في فارس، والدولة العثمانية، **والدولة المملوكية**.

ومن المعروف أن لفارس (إيران) تاريخاً مجيداً في الإسلام، وساهمت بنصيب كبير في حضارته، ولاسيما في مجال الثقافة العقلية. وكان الفرس في بادئ الأمر على المذهب السني، ثم اعتنقوا مذهب الشيعة الإمامية عندما قامت الدولة الصفوية وأخذت تفرض على فارس وما جاورها. وكانت هذه الدولة قد نشأت بادئ ذي بدء كحركة دينية صوفية وسط الاضطراب الذي عمّ المنطقة عقب سقوط دولة المغول الكبرى. وتنسب هذه الحركة إلى الشيخ صفي الدين المتوفى سنة ١٣٣٤م والذي كان يقيم في أردبيل من أعمال أذربيجان. ويعد الشاه اسماعيل الصوفي (١٥٠٠-١٥٢٤م) هو المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية التي امتدت في عهده من هرات في الشرق إلى بغداد وديار بكر في الغرب، وكانت العاصمة تبريز. وجعل الشاه اسماعيل الصفوي من نفسه حامياً للمذهب الشيعي الذي اتخذه ملجأ رسمياً لدولته.

وكان لا بد أن يجذب العراق أنظار الشاه اسماعيل، لما فيها من مزارات أو عتبات مقدسة، وهي مقابر أئمة الشيعة في كربلاء والنجف، والتي تهفو إليها نفوس الشيعة وتحج إليها جموعهم كل عام. هذا فضلاً عما تحتويه العراق من أراضٍ زراعية واسعة، كما يفتح الطريق أمام الفرس إلى البحر المتوسط، ويضمن لفارس منفذاً سهلياً نهرياً على الخليج العربي، ومن ثم، ففي عام ١٥٠٨ غزا إسماعيل العراق وهدم ما كان في بغداد من قبور أئمة السنة وقتل جماعة من علمائهم، ثم زار العتبات المقدسة في الفرات، وقام بتعيين حاكم صفوي على العراق.

وترتب على الغزو الفارسي للعراق أن تقاربت حدود الدولة الصفوية من ناحية الغرب مع الحدود الشرقية للدولة العثمانية، وكان الاتراك العثمانيين قد دخلوا آسيا الصغرى في الثلث الأول من القرن الثالث عشر كقبيلة من قبائل التركية. وكما ذكرنا سابقاً فقد اتجه العثمانيون منذ منتصف القرن الرابع عشر تقريباً في توسعهم صوب البلقان في أوروبا، وكان هذا الاتجاه الأوربي المبكر من العوامل المساعدة لهم على ازدياد قوتهم وتوسع رقعة إمارتهم وتحولها إلى دولة فإمبراطورية شاسعة الأرجاء. ومن خلال المرحلة الأولى من الغزو العسكري العثماني، والتي امتدت من بدء قيام الإمارة العثمانية في الاناضول حتى وفاة السلطان بايزيد الثاني عام ١٥١٢م، قامت استراتيجية التوسع الإقليمي العثماني في اتجاهين مختلفين في وقت واحد: اتجاه نحو أوروبا وميدان شبه جزيرة البلقان، واتجاه نحو آسيا ورقعته شبه جزيرة الأناضول. وخلال هذه المرحلة انتقلت عاصمة الدولة بين الاناضول والبلقان إلى أن استقرت في القسطنطينية (إستانبول).

وقد ظلّ العثمانيون متجهين إلى الفتح والتوسع في البلقان وحوض نهر الدانوب حتى مطلع القرن السادس عشر، ثم وجهوا منذئذ قدراً كبيراً من نشاطهم الحربي إلى الشرق، خصوصاً بعد أن تقاربت حدودهم الشرقية مع حدود الدولة الصفوية على إثر استيلاء الصفويين على العراق عام

١٥٠٨م، وبعد ان قضت كل من الدولتين العثمانية والصفوية على الإمارات التركمانية المجاورة. ولم تكن الحدود في تلك المنطقة محددة تحديداً جيداً أو مضبوطاً، بحيث تمنع الاشتباك بين الدولتين، كما كان يسكنها عناصر مختلفة من أكراد وعرب وتركمان وأتراك، وهؤلاء كانوا يتأرجحون في ولائهم بين العثمانيين والصفويين، فكانت مشكلات الحدود من العوامل التي أدت إلى إثارة المنازعات بينهم.

وفضلاً عن ذلك فإن الشاه إسماعيل الصفوي لم يكتف بإعلان المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في العراق، بل استغل سياسة السلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢م) السلمية نحو الشرق وجهاده ضد القوى الأوروبية في البلقان بصفة خاصة، فحاول نشر المذهب الشيعي بين القبائل التركمانية في شرقي الأناضول تمهيداً لبسط السيطرة الصفوية هناك، وأخذت القبائل التركمانية تتجاوب مع دعوته. وفي عام ١٥١١ اندلعت ثورة بين تركمان الاناضول بقيادة رجل لقب بـ شاه قولي (عبد الشاه) الذي أعلن ولاءه للشاه الصفوي وتكاثر أتباعه واحتل كوتاهية، لكن العثمانيين أخمدوا ثورته بالقوة. ولا شكّ أن المسؤولين في استانبول قد شعروا بفداحة الخطر الجديد الذي يمثله الشاه إسماعيل الصفوي بالنسبة لسكان الإمبراطورية العثمانية بالذات.

وفي اوائل عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) ازدادت العلاقات العثمانية-الصفوية سوءاً، فقبل اعتلائه العرش وعندما كان أميراً على طرابيزون أدرك سليم خطورة الزحف الشيعي فحاول إثارة والده بايزيد الثاني لمواجهته، إلا أن محاولته ذهبت سدى. ولما اعتلى سليم العرش لم يقدم الشاه إسماعيل التهنئة إليه بهذه المناسبة، كما فعل ملك المجر وقيصر روسيا والسلطان المملوكي، فاعتبر سليم ذلك تصرفاً عدائياً من الشاه يكشف عن عدم اعتراف من جانبه بسلطته. ولم يلبث أن ثار بعض إخوة سليم الطامعين بالحكم عليه فالتجأ أخوه الأكبر أحمد إلى الشاه الذي استغله لتأليب المعارضة على سليم، وإزاء ذلك كله هبَّ سليم لاستئصال الخطر الشيعي الزاحف عليه، فأستصدر من شيخ الإسلام فتوى تحتم ضرورة قتال الشيعة باعتبارهم خارجين على الدين القويم، وتجيز بالتالي قتلهم. واستناداً لهذه الفتوى أجرى سليم مذابح كثيرة بين الشيعة في الأناضول، وردَّ إسماعيل على ذلك بإقامة مذابح عامة بين السنة في بلاده، وتبادل السلطان والشاه الرسائل العنيفة، وتلا ذلك أن أعلن سليم الجهاد الديني وخرج لقتال الصفويين

- **معركة جالديران ٢٣ آب ١٥١٤:**

حدث الصدام الأول بين العثمانيين والصفويين في سهل جالديران بالقرب من تبريز، حيث دارت المعركة في **٢٣ آب ١٥١٤ ب**ين القوات العثمانية المسلحة بالبندقية والمدفعية وبين القوات الصفوية التي تتألف غالبيتها من الفرسان التركمان الذين يستخدمون الأسلحة التقليدية ويجهلون أساليب الحرب الحديثة حينذاك، ودارت الدائرة بالطبع على الصفويين، وأثبت سلاح المدفعية فعاليته في القتال، ودخل السلطان سليم تبريز عاصمة الصفويين واستولى على أموال الشاه ونفائس قصره، وأمر بترحيل مهرة الصناع إلى استانبول.

وعلى أن العثمانيين لم يتابعوا بعد احتلالهم تبريز التوغل في الأراضي الفارسية وملاحقة الشاه إلى الداخل، ويرجع ذلك لعدة أسباب من أهمها: وعورة مسالك الهضبة الفارسية، والقحط الذي

عم المنطقة كنتيجة لسياسة إحراق الأرض التي اتبعها الشاه بعد انسحابه، وتمرد الإنكشارية معلنين رفضهم لفكرة متابعة الهجوم.

وفي أعقاب معركة جالديران احتل العثمانيون كردستان وديار بكر ومرعش ودخلوا الموصل، ولكن بغداد والبصرة بقيتا تحت الحكم الصفوي

أما القوة الثالثة ذات الوزن في العالم الإسلامي وقتئذ **هي دولة المماليك** في مصر والشام، وصاحبة السيادة على الحجاز واليمن. وكانت هذه الدولة قد تولت الحكم منذ اواسط القرن الثالث عشر تقريباً، وعاش سلاطينها في رخاء هيأته لهم الثروة الطائلة التي جنوها من وراء فرضهم الضرائب الجمركية على السلع الشرقية عند مرورها في اراضيهم، وهي سلع كانت أوروبا وبلاد الغرب تحتاج إليها لاستخدامها في حفظ اللحم وإعطاء مذاق خاص للطعام أو في إعداد الدواء.

ومن جهة أخرى فقد كان للدولة المملوكية فضل إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة عام ١٢٦١م، وبذلك أضفت على نفسها الطابع الشرعي، وتبوأ سلاطينها مركزاً مرموقاً، فقد أصبح لهم المقام الأسمى على كل ملوك وحكام العالم الإسلامي باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها، كما أصبح للقاهرة مكانة سياسية ممتازة تفوق كل عواصم العالم الإسلامي لأنها مقر الخلافة التي يدين لها بالولاء الروحي كل العالم الإسلامي.

غير أن الكارثة الكبرى التي حلّت بالعرب في تاريخهم الحديث قد وقعت عام ١٤٩٨م، ففي ١٧ أيار من ذلك العام رست سفينة الملاح البرتغالي فاسكو دي غاما على شواطئ الهند خلال رحلته الاستكشافية البحرية حول رأس الرجاء الصالح، وعاد في آب عام ١٤٩٩م إلى لشبونة ومع شحنة من التوابل. وهكذا ربطت رحلة دو غاما غرب أوروبا ربطاً مباشراً بالهند عن طريق الالتفاف حول إفريقيا، وتلت هذه الرحلة البحرية رحلات استكشافية أخرى، وأقام البرتغاليون قواعد في الهند. واعتماداً على قوة أساطيلهم البحرية شرعوا في مهاجمة السفن العربية في كل مكان وإغراقها وإحراقها أو الاستيلاء عليها.

وكان طبيعياً أن تتصدى دولة المماليك للخطر البرتغالي، أن تعمل لإنقاذ اقتصادها من الإنهيار بإعادة طريقي التجارة القديمين (البحر الأحمر والخليج العربي) إلى سابق عهدهما. وقد بذل السلطان قانصوه الغوري (١٥٠١-١٥١٦م) جهده منذ عام ١٥٠٥ مستعيناً بالبندقية لإعاد حملة بحرية لمواجهة البرتغاليين، لكن الأسطول المملوكي هزم وتحطم في **معركة "ديو البحرية "** عام ١٥٠٩م.

وهكذا واجه المشرق العربي في مستهل القرن السادس عشر خطراً مزدوجاً: الضغط الصفوي الفارسي من جهة، والضغط البرتغالي من جهة اخرى، والذي احتكر الجانب الأكبر من التجارة الشرقية، ووطد أقدام في قواعد ومحطات مسلحة تقع على منافذ البحار الشرقية ومسالكها، وصار يحاول النفاذ إلى البحر الأحمر.

**ثانياً- الاحتلال العثماني لبلاد الشام ومصر:**

كانت العلاقات المملوكية العثمانية في توتر مستمر رغم ذلك وجدت بعض الحالات لتحسن العلاقات لو بشكل مؤقت:

أ . إن حدوث نزاع بين الطرفين حول إمارة إلبستان (ذي القدر) وهي منطقة محايدة بين السلطنة المملوكية والسلطنة العثمانية، حيث كانت هذه الإمارة تضم عدداً من القبائل التركمانية وإن تأييد كل من العثمانيين والمماليك لأمير تركماني وممارسة النفوذ من خلاله أدى إلى ازدياد الخلاف بين العثمانيين والمماليك وخصوصاً عندما يشتد الخلاف داخل الأسرة الحاكمة في إمارة إلبستان.

ب . ذكرنا سابقاً كيف أن العلاقات بين الطرفين قد تأزمت عندما هرب جم ابن السلطان محمد الثاني (١٤٨١م) إلى السلطنة المملوكية وذلك بعد النزاع الذي حصل بينه وبين أخيه بيازيد حول استلام العرش، ورفض السلطان المملوكي قاتباي تسليمه لبيازيد مما أدى بدوره إلى تأزم العلاقات بين الطرفين. ولكن الخلاف سرعان مازال ولو لفترة مؤقتة عندما توفي الأمير جم بعد هروبه إلى إيطاليا عام ١٤٩٥م ورافق ذلك تزايد تهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة (مكة والمدينة المنورة) فطلب المماليك مساعدة العثمانيين فلبى العثمانيون المساعدة بـ ٣٠ سفينة و ٣٠٠ مدفع ولكن فرسان القديس يوحنا المتواجدين في جزيرة رودوس استطاعوا السيطرة على تلك المساعدات.

ج . ذكرنا سابقاً أن ظهور الشاه إسماعيل وتوسيع أملاكه أدى إلى حدوث تقارب بين العثمانيين والمماليك وخصوصاً عام ١٥٠٧ م عندما حاول الشاه إسماعيل بن حيدر السيطرة على إمارة إلبستان بهدف نشر مذهبه الشيعي وتحالفه مع الدول الأوروبية بضرب سواحل بلاد الشام لذا حدث تقارب بين المماليك والعثمانيين بهدف إقامة علاقات ودية وشراء الأخشاب من السلطنة العثمانية من أجل صناعة السفن ومجابهة الغزوات البرتغالية الذين هددوا سواحل البحر الأحمر بهدف السيطرة على تجارته وخصوصاً بعد سيطرتهم على طريق رأس الرجاء الصالح وانتصارهم على المماليك في معركة ديو البحرية ١٥٠٩م.

لقد رافق ذلك تدهور مركز الخليفة العباسي المتوكل على الله (أبو عبد الله محمد بن المستمسك بالله في القاهرة) وبالتالي فإن ظهور الضعف على السلطنة المملوكية أدى إلى ازدياد اهتمام العثمانيين بها. لكن التوتر ما لبث أن عاد بين المماليك والعثمانيين إثر انتصار العثمانيين على الصفويين في معركة جالديران واختلال ميزان القوى في المنطقة لصالح العثمانيين. حيث أزاح العثمانيون حاكم إلبستان علاء الدين الذي كان حليف المماليك من الحكم بسبب عدم مساعدته لهم ضد الشاه إسماعيل ووضعوا خلفاً له هو علي بن شاه سوار الذي أصبح تابعاً للعثمانيين، هذا التبدل أقلق المماليك وزاد من شقة الخلاف بينهم وبين العثمانيين.

لكن اتهام كل من المماليك والعثمانيين لبعضهم البعض أدى في نهاية المطاف إلى اشتباك

الطرفين في **معركة مرج دابق عام ١٥١٦** حيث اتهم المماليك العثمانيين بأنهم يمنعون التجار المارين ببلادهم من جلب المماليك الشراكسة إلى السلطنة المملوكية، بينما اتهم العثمانيون المماليك باعتدائهم على حدود السلطنة العثمانية.

ولكن الموقف تأزم أكثر عندما علم العثمانيون أثناء قتالهم مع الصفويين بالمفاوضات السرية بين الشاه إسماعيل والمماليك وبمحاولة إيقاف قوافل المؤن العثمانية التي كانت ترفد الجيش العثماني وفضلاً عن ذلك لجوء ابن أحد أشقاء السلطان واسمه أحمد إلى المماليك والذي سبق أن كان لاجئاً لدى الشاه إسماعيل ورفض المماليك تسليمه إلى السلطان سليم عندما طلب ذلك وذلك بقصد المساومة عليه. عندما أرسل السلطان سليم رسوله إلى السلطان **قانصوه الغوري** (الذي كان على رأس جيش مكون من (٥٠٠٠) جندي والذي خرج به لإخافة السلطان العثماني سليم وبمجرد ظهوره على الحدود الشمالية يتنازل السلطان العثماني له عما يريد لكنه أخطأ وسنرى فيما بعد أنه أساء التقدير لأنه بعمله هذا استثار العثمانيين ودفعهم للقتال. بالنسبة لرسل السلطان سليم فقد أُهينوا من قبل السلطان الغوري، وعلى الفور طلب السلطان سليم من المفتي إصدار فتوى بقتال لمماليك. وبالفعل أصدر المفتي علي الجمالي فتوى بقتال المماليك بحجة رسمهم للآيات القرآنية على النقود، وفي موضع يعرف **بتل الفار قرب مرج دابق شمال حلب** التقى الجيشان العثماني والمملوكي في ٢٣ آب ١٥١٦ م ونتيجة للمعركة **هُزم المماليك وتوفي الغوري**.

**طبعاً هناك أسباب وعوامل ساعدت العثمانيين على تحقيق الانتصار على المماليك وهي كالتالي:**

**أولاً:** الضعف العسكري والاقتصادي الذي كانت تعاني منه البلاد العربية نتيجة الجهود التي بذلتها في حروبها ضد الصليبين والمغول.

**ثانياً:** الصراعات التي كانت دائرة بين المماليك أنفسهم والتنافر الشديد بين طوائفهم المتناحرة أدى إلى إضعاف فعالياتهم في القتال، فضلاً عن ذلك إن انتصار العثمانيين في جالديران كان محبطاً للمماليك ومشجعاً للعثمانيين في القتال .

**ثالثاً:** سوء معاملة المماليك للأهالي والتعالي عليهم والتعسف في جمع الضرائب أدى بالضرورة إلى التفافهم حول العثمانيين باعتبارهم القوة الإسلامية القوية التي أحرزت الانتصارات على الغرب فضلاً عن عدهم القوة التي ستخلصهم من النير المملوكي.

ولكن الحق يقال: "**لم يلقَ العثمانيون ترحيباً حاراً من العرب لأن السكان العرب المحليين كانوا يستبدلون حاكما تركمانياً (الحكم المملوكي) بحاكم تركي آخر (العثماني)**"

**رابعاً:** استخدام العثمانيين للسلاح الناري ذلك السلاح الذي كره استخدامه المماليك الفرسان، فضلاً عن ذلك إن الخيانة لعبت دوراً هاماً في هزيمة المماليك، لأن بعض الأمراء المماليك **تحالفوا مع العثمانيين ضد أسيادهم** المماليك كمثال **خاير بك (نائب حلب) وجان بردي الغزالي نائب السلطان في الشام**.

فيما بعد كافأ العثمانيون خاير بك والغزالي بعد سيطرتهم على بلاد الشام ومصر فأعطوا الأول

ولاية مصر وللثاني حكم ولاية دمشق. بعد انتهاء المعركة اتجه السلطان سليم يرافقه كل من خاير بك والخليفة العباسي المتوكل على الله إلى مدينة حلب، فدخلها بقبول أهلها بعد طردهم العسكر المماليك بسبب سوء معاملتهم للأهالي. وبعد ذلك قام السلطان سليم فخطب في جوامع حلب ولقب بحامي الحرمين الشريفين ثم استولى على أموال المماليك وأحسن إلى العلماء وبعد تعيينه حاكماً رومياً (والياً) على حلب توجه للسيطرة على دمشق.

النائب جان بردي الغزالي كان مؤيد بالظاهر للسلطنة المملوكية وفي الباطن مع السلطان سليم فر إلى دمشق وقام بتعيين حكام من قبله على حماة وحمص وقام بتعيين ابن جانباي البدوي الملقب بأمير الشام على حوران والمرج. ولكن متابعة السلطان سليم سيره باتجاه المدن السورية جعل كل من حاكمي حمص وحماه يفران إلى دمشق ثم بدأ المماليك وعلى رأسهم جان بردي الغزالي يخرجون باتجاه مصر. إزاء هذه الفوضى استغلها **(جماعة الزعران في المدينة وقاموا بهجمات ضد المماليك)**، حتى يقال إنه حصل نزاع بين أهل المزة وأهل داريا الذين استفادوا من الفوضى لتصفية خلافات قديمة. قبل وصول السلطان سليم إلى دمشق، وصل إليها في ٢٧ أيلول ١٥١٦ م كل من المتسلم (نائب الوالي العثماني) وخاير بك وبعد ذلك قدم الوالي العثماني (يونس باشا).

ثم قام خاير بك وخطب باسم السلطان في الجامع الأموي وبعد ذلك أخذ الجنود يتوافدون إلى دمشق. ثم وصل القاضي الحنفي **زين العابدين بن الغزي الرومي** فأخذ يعين القضاة من كافة المذاهب.

وصل السلطان سليم الأول إلى دمشق في ٢٩ أيلول ١٥١٦ ولم يدخلها بل تمركز في ظاهرها (منطقة برزة) فقدم إليه كل من القضاة الأربعة ونقيب الأشراف كمال الدين بن حمزة وعدد من الأشراف للسلام عليه وتقديم مراسيم الولاء والطاعة. كما أن **ناصر الدين ابن الحنش أمير البقاع** قد أسرع لتقديم الطاعة فمنحه السلطان سنجقاً وبعض الإقطاعات فالتزم ابن الحنش بأن يقدم البدو ولائهم للسلطان العثماني. لقد هدف السلطان سليم من إقامته في ظاهر دمشق إلى مراقبة المدينة وتهيئة الجو لدخولها ولم يدخلها حتى ١٠ تشرين الأول.

**وأهم الأعمال التي قام بها في دمشق:**

١ـ اهتمامه بمسألة الضرائب وذلك من خلال الإحصاء التي أمر به للسكان وتحديد ممتلكات كل شخص.

٢. وليظهر نفسه بأنه جدير بلقب حامي الحرمين الشرفيين فزين ثوب المحمل الذي كان يرافق الحجاج إلى الأماكن المقدسة وعين جنداً لمرافقته.

**بعد سيطرة السلطان سليم على دمشق لم يكن مهتماً بالسيطرة على مصر وذلك لأسباب عديدة من أهمها:**

أ- لأنه حطم إمكانية عقد تحالف بين الصوفيين والمماليك. وإن سيطرته على بلاد الشام حققت له نوعاً من الفوائد العسكرية والدينية.

ب- لأن بسط سيطرته على مصر سيعرض جيشه لمخاطر اجتياز منطقة سيناء الصحراوية وخطر هجوم البدو عليه.

ج- كان للسلطان سليم بعد نظر حيث توقع أن تكون المقاومة أكثر عنفاً في مصر مقارنة بالشام وذلك لتمركز المماليك فيها وعدّ مصر آخر معقل لهم.

د- إن توغل القوات العثمانية في مصر من شأنه أن يشجع الصفويين على استجماع قوتهم وإعادة تهديد المناطق في الأناضول وهذا ما حصل فعلاً إثر سيطرته على مصر.

هـ- إن سيطرة العثمانيين على مصر سيترتب عليه التزامات دفاعية جديدة حيث يجعلهم وجهاً لوجه أمام الخطر البرتغالي في البحر الأحمر.

**ولهذه الأسباب مجتمعة فاوض السلطان سليم وهو في دمشق السلطان المملوكي (طومان باي) على عدة أمور منها:**

١. الخضوع للسلطان سليم والبقاء في مصر حاكماً من قبله شريطة أن تضرب النقود في مصر باسم السلطان سليم وتكون الخطبة باسمه. لكن السلطان المملوكي **(طومان باي)** بعد أن أعلن نفسه سلطاناً بشكل رسمي في ١١ تشرين الأول ولقب نفسه بالملك الصالح فضلاً عن مبايعة يعقوب ولد الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله بطريق الوكالة للسلطان طومان باي .

**رفض السلطان طومان باي طلب السلطان سليم وقتل رسله، وإزاء هذا الرفض وإلحاح من خاير بك الطامح بحكم مصر وخوفاً على حياته قرر السلطان سليم السيطرة على مصر لأن وجود قوة معادية له في مصر من شأنه أن يهدد ملكه في بلاد الشام**

قبل مغادرة السلطان سليم دمشق في ١٥ كانون الأول عام ١٥١٦ م زار قبر محي الدين بن عربي الصوفي المشهور ووزع المال على أهل الصالحية حيث يسكن العلماء والصوفية هناك، ولإظهار أن الدولة راعية للصوفية و أول لقاء بين المماليك والعثمانيين كان بين الوزير سنان باشا قائد طلائع الجيش العثماني وحملة مملوكية بقيادة جان بردي الغزالي عند خان يونس في فلسطين حيث تم أسر جان بردي الغزالي لكن سهل له الفرار لأنه متواطئ مع العثمانيين.

اطلع خاير بك على خطة طوماي باي العسكرية وعلى الطرق التي يتبعها السلطان سليم لقهر المماليك (وهنا لعبت الخيانة دورها)، فضلاً عن ذلك إن ولاء البدو للعثمانيين كان عاملاً هاماً في انتصارهم في خان يونس.

- عندما علم السلطان المملوكي طومان باي بالهزيمة أخذ يعدّ العدة ويعد الجنود بالوعود والهدايا في حال انتصاره على العثمانيين.

- في ٢٣ كانون الثاني ١٥١٧ اصطدم العثمانيون بقيادة سليم بالمماليك بقيادة طومان باي في **الريدانية** عند مشارف القاهرة فانتصروا على المماليك فهرب طوماي باي إلى شيخ بدو البحيرة حسن بن مرعي فسلمه بدوره إلى السلطان سليم بعد أن نال وعداً بتقديمه على جميع مشايخ البدو، وجعل المنطقة التي يسيطر عليها إقطاعاً لا تؤخذ منه أي ضرائب.

**وبعد وقوع السلطان طوماي باي بأيدي السلطان سليم شنقه على باب زويلة في القاهرة في ١٣ نيسان ١٥١٧م. وبالتالي فإن انتصار العثمانيين في معركة جالديران والريدانية ومرج دابق قد أنهى منافسة الجيران. وبالتالي تحرَّر العثمانيون من أي خطر يهدد سلطتهم أو يحد من اتخاذهم للإجراءات التي تتلاءم وبناء دولتهم، فأخذوا يتعاملون مع سكان البلاد الأصليين بما يتناسب ومصالحهم:**

١ـ في مصر أبطلوا العملة المتداولة وتم التعامل بالعملة العثمانية، وأمر السلطان سليم بإرسال عدد من أصحاب الحرف والصنائع إلى استانبول.

٢ـ بالنسبة للتنظيمات الإدارية فقد أبقى على الكثير من النظم المملوكية وعهد إلى شخصيات مملوكية بارزة بمناصب إدارية كمثل (إمرة الحج المصري ومنصب الدفترداري (إدارة المال) بيد المماليك.

وعندها بدأ يستعد لمغادرة مصر بعد أن وصلته أنباء عن خطر تحركات الشاه إسماعيل، وقبل مغادرة القاهرة تلقى وهو في القاهرة وفداً من الشريف بركات شريف مكة ليقدم مراسيم الطاعة والخضوع للسلطان سليم، فاعترف السلطان سليم بالشريف بركات حاكماً على مكة وولاَّه على الحجاز وجدة. وقبل خروج السلطان سليم الأول من القاهرة عين خاير بك والياً على مصر ثمناً للخيانة وغادر السلطان مصر متجهاً إلى دمشق. وفي ١٠ أيلول ١٥١٧ وقبل خروجه خرج الخليفة المتوكل على الله إلى استانبول بناءاً على أوامر السلطان سليم والهدف من ذلك عدم تمكين أي ثائر من استغلال وجود سلطته الدينية ضد العثمانيين. ورغم ذلك لم يتخذ السلطان سليم الأول لقب (خليفة) وخصوصاً بعد خضوع الأماكن المقدسة لسلطته حتى عصر السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ – ١٩٠٩م ثم تمّ اتخاذه لقب خليفة بسبب تزايد الأطماع الخارجية.

**وصل السلطان سليم دمشق في ٧ تشرين الأول ١٥١٧ م وعند وصوله شدد على ثلاثة أمور:**

١ـ إدخال بعض التنظيمات العثمانية بهدف إيجاد المال للدولة: فرض الضرائب على النفوس وضريبة القمح على كل حارة من أحياء دمشق.

٢ـ توطيد السلطة العثمانية خارج دمشق لإيجاد الأمن والاستقرار ولحماية قافلة الحج الشامي.

٣. الانتقال بسرعة لمواجهة الخطر الصفوي، وتلقين شاه إيران إسماعيل درساً آخر.

٤ـ استبدال التنوخيين حكام جبل للبنان بالمعينين وذلك لوقوفهم إلى جانبه في مرج دابق ١٩١٦م.

بعد ذلك غادر السلطان سليم دمشق في ٢١ شباط ١٥١٨ م وذلك بعد أن عزل عنها الوالي شهاب الدين **أحمد بن يخش الرومي** وعين بدلاً عنه **جان بردي الغزالي** كمكافأة لخيانته. وتم تعيين **ولي الدين بن الفرفور الدمشقي** منصب القاضي الحنفي في دمشق وجعل القضاة الأربع التابعين للمذاهب الإسلامية تحت إمرته لأن الدولة العثمانية تدين (متبعة) للمذهب الحنفي.

فبالتالي فإن الدولة العثمانية بعد سيطرتها على بلاد الشام ومصر وقضائها على السلطنة المملوكية ورثت من السلطنة المملوكية مما أدى إلى:

١. تحول الطرق التجارية العالمية من البحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح ونتج عن هذا التحول الانهيار الاقتصادي للبلاد العربية الواقعة تحت السيطرة العثمانية.

٢. مواجهة الخطر البرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي.

**ثالثاً- العراق:**

إنّ الانتصارات التي حققها العثمانيون في سورية ومصر وجبل لبنان-إضافة إلى تقديم شريف مكة مراسيم الطاعة والولاء والاعتراف به-ضمنت لهم خضوع معظم أقطار البلاد العربية لسيطرتهم، على الرغم من أنّ العراق الخاضع لنفوذ الصفويين لم يكن تابعاً لهم، ولهذا توجهت أنظار العثمانيين لإخضاعه وتوجيه ضربة ثانية للدولة الصفوية سعياً للحد من نفوذها وتطلعاتها الرامية إلى تكوين دولة مستقبلية على المدى القريب أو البعيد، مع العلم بأن الصفويين لم يكونوا مسيطرين على سائر المناطق العراقية، ولم يكن العثمانيون براغبين في إخضاع العراق لسيطرتهم بقدر رغبتهم في القضاء على القوة الصفوية وعدم تمكين حكامها من بناء دولتهم، وإذا كان طهماسب الأول قد حاول سنة ١٥٣٠م إخضاع المناطق العراقية ومني بالفشل، إلّا أنّ محاولته أسهمت في خلق صراع وتنافس ما بين حاكم بغداد وإخوته، هذه المحاولة دفعت أهالي بغداد لطلب النجدة من **السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م)** الذي أسرع لتلبية نجدتهم، حيث أمر الصدر الأعظم إبراهيم باشا بالتوجه إلى العراق على رأس جيش ضخم لاحتلاله وانتزاعه من الصراعات الداخلية والأطماع الصفوية، وأثناء توجه الجيش إلى بغداد عرج إلى تبريز فاحتلها في الثالث عشر من تموز لسنة ١٥٣٤م، كما احتل مدينتي همدان وخانقين، ومنهما سار إلى بغداد فاحتلها في كانون الأول لسنة ١٥٣٤م، وبعد يومين من دخول الجيش إليها قدم إليها السلطان سليمان القانوني وسط ترحيب شعبي كبير.

لم يكن العراق خلال تلك المرحلة التاريخية أكثر من اصطلاح جغرافي، حيث درج الناس على استخدام أسماء المدن التي كانت أشبه بعواصم ولايات، فقد كان ينقسم إلى أربع ولايات هي البصرة وبغداد وشهرزور والموصل، أمّا الإحساء التي احتلت من قبل العثمانيين سنة ١٥٥٢م فكانت ترتبط بالبصرة وبغداد بروابط خاصة، وفي أحيان كثيرة عُدت ولاية خامسة أو صنجقا تابعاً للبصرة، وانقسمت هذه الولايات مثل غيرها من الولايات العثمانية إلى صناجق ووحدات إقطاعية، أما ولايتا البصرة والإحساء فقد خلتا من السناجق "الصناجق" كما خلت بغداد والبصرة والإحساء من التقسيمات الإقطاعية، وبدت ولاية شهرزور أقرب ولايات العراق إلى تنظيمات الولايات العثمانية، وعُدت ولاية بغداد أهم هذه الولايات وأُلحق بواليها واحدة أو أكثر من الولايات الأخرى، وذلك تبعاً للظروف السياسية التي يواجهها العراق من جهة والدولة العثمانية من جهة أخرى.

ظل العراق مصدر قلق واضطراب بالنسبة للإدارة العثمانية في إستانبول؛ لأنّ ولاته أو أحكامه كانوا في حالة صراع فيما بينهم، ففي سنة ١٥١٤م قدم الأكراد ولاءهم للسلطان العثماني،

في حين بقيت بغداد والبصرة بيد الزعيم الكردي ذو الفقار خان الذي كان يعاني من منافسة شقيقه، وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع انتزاع بغداد من الصفويين وحكمها باسم السلطان العثماني مدة ست سنوات من (١٥٢٤-١٥٣٤م)، أمّا أمير البصرة العربي فقد قدم ولاءه للسلطان، ولكن الضرورات العسكرية في حرب الخليج مع البرتغاليين، حتمت على العثمانيين إيجاد قاعدة في البصرة التي احتلوها سنة ١٥٤٦م، ومع توقف النشاط البرتغالي في تلك المناطق، أهمل العثمانيون اهتمامهم بها، فتسلم الحكم فيها المدعو افراسياب الذي حكم وعائلته البصرة من سنة (١٥٩٦-١٦٦٨م)، واحتل الصفويون بغداد مرة أخرى سنة ١٦٢٣م، وجرت محاولات عثمانية لاستعادتها إلى أن تم ذلك على يد السلطان مراد الرابع في تشرين الثاني سنة ١٦٣٨م، وقاسى أهل بغداد الكثير من هذه الحروب.

**رابعاً- ضم الحجاز واليمن :**

الحجاز هي اصطلاح جغرافي لم يتخذ قط شكل وحدة سياسية، وانقسمت شبه الجزيرة خلال هذه الفترة إلى دول ودويلات عديدة ثلاث منها مازالت قائمة، فقد كانت الإحساء ويتبعها أحياناً كل من قطر والبحرين، جزءاً من ولاية البصرة أو ولاية مستقلة، ولمْ تتبدل أوضاع عمان الداخلية كثيراً إذ عمل الإباضيون فيها على إقامة إمامة في مسقط أو نزوى أو الرستاق، وقد تمتد إلى إفريقية الشرقية أو تنحسر إلى مقاطعات في الداخل.

وتمتعت حضرموت بكيان منفصل عن عدن، ونجح الزيديون في اليمن في إخضاع المناطق الجبلية وتهامة ونجران لنفوذهم، وكانَ لوالي جدة العثماني نفوذ تجاوز البحر الأحمر، وحظي شريف مكة بمكانة بارزة لدى سلطات استانبول، أمّا نجد فقد انقسمت إلى حكومات مدن صغيرة، وقامت إمارات العارض حول وادي حنيفة حيث برزت العيينة والرياض ثمّ الردعية التي سيطرت في وقت لاحق على كل نجد والحجاز والإحساء.

اكتفى حاكم مكة الهاشمي بلقب ومنصب " شريف مكة " واعترف بسيادة السلطان العثماني الذي مارسَ حق تنصيب الشريف أو عزله أو الاعتراف بالأمر الواقع، وتمسك الأشراف بالحقوق والامتيازات التي نالها الشريف أبو نمى من السلطان العثماني سليم الأول، وتقلب على المنصب خلال العهد العثماني ثمانية وستون شريفاً، ولقي كثير من هؤلاء نهاية غير سعيدة، فقد شنق اثنان ومات واحد في السجن وآخر في المعركة، بينما مات عدد في المنفى وآخرهم الشريف حسن بن علي الذي نفي إلى جزيرة قبرص سنة ١٩٢٤م.

شهدت مناطق الجزيرة الشرقية تغييرات سياسية واجتماعية، فقد تهاوت إمارة بني خالد في الإحساء ١٦٦٩ – ١٧٩٢م أمام ضربات السعوديين، وغدت في سنة ١٧٩٣م إمارة سعودية، ويقول الدكتور عبد الكريم غرابيه في كتابه تاريخ العرب الحديث: "لأول مرة في تاريخ الإحساء منذ صدر الإسلام تخضع الإحساء لحكام قادمين من الغرب".

أمّا بالنسبة لليمن فلم يكن المماليك بقادرين على صد الخطر البرتغالي الموجه نحو المحيط الهندي وسواحل البحر الأحمر، وعلى الرغم من محاولتهم تقديم الدعم لسلطان الهند، إلّا أنّ القوات التي أرسلها قانصوه الغوري بقيادة حسين الكردي، لم تستطع الصمود أمامَ النفوذ البرتغالي، وعند

عودته اصطدم مع قوات السلطان عامر بن عبد الوهاب آخر الملوك الطاهريين في اليمن، وقد استطاع حسين الانتصار على عامر بعد مساندة زيدية له، وتمكن من احتلال زبيد سنة ١٥١٦م.
قامَ المماليك إثر سقوط زبيد بأعمال سلب ونهب كثيرة، كما قامَ حسين الكردي بمصادرة أموال التجار والأهالي على حدٍ سواء، ولكنه لم يمكث بها طويلاً، حيث توجه إلى الساحل بعدما عهد إلى برسباي بإدارتها، إضافة إلى قيادة المماليك في تهامة.

توجه حسين الكردي إلى المناطق الساحلية للبحر الأحمر وحالما بلغ "زيلغ" تحرك منها باتجاه عدن في الثاني عشر من آب لسنة ١٥١٦م، تصدت عدن بكل بسالة لقوات حسين معتمدة على تحصيناتها الطبيعية وشجاعة أهلها، ولمْ يتمكن من احتلالها؛ لأنّ القوات الطاهرية التي وصلتها أجبرته على الانسحاب، ونتجَ عن فشله توقف حملته في الذهاب إلى الهند.

وقرر اتخاذ سواحل تهامة كخط دفاع أول عن البحر الأحمر، وجدة خط دفاع ثانٍ، أمّا حسين فقد قرر العودة إلى مناطق تهامة وتقابل مع الأمير برسباي في ميناء المخا. وواصل حسين الكردي وسليمان الرومي سيرهما إلى جدة لتقوية مراكزهم الدفاعية فيها بدلاً من عدن، وما إن استقر فيها حتّى كانت مصر قد سقطت بأيدي السلطان سليم الأول، فقامَ أشراف مكة بتقديم مراسيم الطاعة والولاء له فأبقاهم في مناصبهم، وبهدف توسيع دائرة نفوذهم، وللتخلص من حسين، أبلغوه أنّ السلطان العثماني يريده، فدبروا له مكيدة، أسفرت عن مقتله غرقاً أمامَ ميناء جدة انتقاماً منه لأعماله القاسية أثناء ولايته لجدة.

أمّا المماليك الذين استقروا في زبيد تحت قيادة الأمير برسباي فقد شُغِلوا في الحروب الداخلية مع الطاهريين، ومارسوا خلال تحركاتهم أعمال سلب ونهب مخيفة، وتمكنوا من الاستيلاء على صنعاء. وحالما علموا بسقوط دولتهم في مصر، سارعوا بالاعتراف بالسيادة العثمانية، وبذلك تكون اليمن قد دخلت مرحلة جديدة وأحداثاً مستجدة. فالعثمانيون يدركون الأهمية الاستراتيجية لليمن ولاسيما دورها الأساسي بنزاعهم مع البرتغاليين، ورغم ذلك فلمْ يفكروا في احتلالها آنذاك، لأنّ الظروف المحيطة بهم لا تساعدهم على القيام بعمل عسكري ضد اليمن، وظل وضعهم في اليمن مضطرباً حتى سنة ١٥٣٨م.

فقد امتازت اليمن خلال الفترة من ١٥١٨– ١٥٣٨م بحدوث اضطرابات كبيرة في أوضاعها الداخلية، فالولاة الذين عهد إليهم إدارة الأمور فيها لمْ يمتلكوا المقدرة على ملء الفراغ الذي خلفه سقوط عامر بن الوهاب الطاهري ولاسيما أنّ سقوطه جاء على يد المماليك المفتقرين إلى الإدارة وحسن التصرف والتقرب من الأهالي، وهذا ما أتاحَ للإمام شرف الدين ملء الفراغ، وهكذا تعرضت اليمن للصراع بين قوى ثلاث: القوة المحلية بزعامة الإمام شرف الدين وبقايا الأسر الطاهرية المتطلعة لاستعادة نفوذها، والقوة المملوكية المائعة والسائحة في البلاد ناشرة الذعر والرعب في أماكن تواجدها، وسط هذا الصراع تمكنت القوى المحلية من إثبات وجودها، أمّا القوى الأخرى فهي قوى غريبة ولا تمتلك عوامل الوجود وأسباب البقاء، ومن الطبيعي أنْ تذوب تحت وطأة القوة ناشئة، فالأسرة الطاهرية ذابت مع العنصر المحلي، أمّا القوة المملوكية كونها رفدت اليمن بدافعِ السيطرة والحكم، ولهذا رفضت الذوبان مع العنصر المحلي أو الخضوع للزعامة المحلية مهما كانت هويتها الطبقية أو الدينية، وبخضوع اليمن ولو اسمياً للعثمانيين استغلت

الفرصة وأعلنت الانضواء تحت السيطرة العثمانية، وبما أن العثمانيين لم يتمثل وجودهم من خلال قوة عسكرية، فإنّ المماليك سيقومون بدور الممثل إلى أن تسمح الظروف للعثمانيين بإرسال قوات فعلية إلى اليمن وقد تحقق ذلك سنة ١٥٣٨م.

إنّ ولاة المماليك الذين تولوا إدارة الأمور في اليمن كممثلين للعثمانيين، استغلوا بعد العثمانيين وعدم وجود قوة عسكرية لهم في اليمن، فأوسعوا الأهالي ظلماً، وخوفاً من تفاقم الأمور في اليمن أمر السلطان سليمان القانوني بتجهيز قوة عسكرية وإرسالها إلى الهند بقيادة سليمان باشا الخادم، أمره بمقاومة البرتغاليين وإخضاع تجارة الشرق الأقصى له، كما كلفه فرض السلطة في اليمن.

توجه سليمان باشا إلى اليمن فاحتل عدن من حاكمها عامر بن داود، وعين بهرام حاكماً على اليمن، ومن ثم تابع طريقه إلى الهند، إلّا أنّه لم يوفق في حملته، وأثناء عودته إلى اليمن ثانية أمر بقتل حاكمها سنة ١٥٣٩م لغطرسته واتباعه الظلم، وفي ٢٣حزيران سنة١٥٣٩م، أرسل السلطان سليمان القانوني مرسومين إلى الأميرين اللذين عينهما سليمان باشا الخادم في عدن وزبيد لتثبيتهما في حكم هاتين الإمارتين، كما أرسل مرسوماً ثالثاً إلى الإمام شرف الدين الذي يعلمه فيه بإبقاء الأوضاع في اليمن كما هي عليه.

اتخذت هذه الإجراءات المبدئية ريثما تستقر الأوضاع فيها للعثمانيين، وبعد مرور مدّة زمنية قصيرة حولت اليمن إلى ولاية عثمانية لها كل مقومات الإدارة العثمانية، فقد طبقت فيها النظم الإدارية العثمانية التقليدية مثل منصب الوالي والكتخدا والدفتردار وأمرة الصناجق والأغوات وغيرهم، وفي سنة ١٥٤١م صدر فرمان همايوني بتعيين مصطفى باشا النشار كأول والٍ عثماني على اليمن، وكان مصطفى أحد ضباط الحملة التي ترأسها السلطان سليم على مصر، وبقي فيها يتدرج بالمناصب، وتوليه لإمارة الحج المصري عدة سنوات، جعلته أحد المقربين إلى داود باشا والي مصر آنذاك، فرشحه الأخير ليكون والياً على الممتلكات العثمانية في اليمن، وفي سنة ١٥٤٦م خلف مصطفى باشا في إدارة الولاية أويس باشا الذي أعد حملة كبيرة، احتل فيها تعز من القوى المحلية، ووطد سلطة العثمانيين فيها، لكن جنوده تحالفوا مع الأهالي وقتلوه، وقد قاتل ازدمر اليمنيين قتالاً ضارياً وسيطر على صنعاء، وضرب القبائل ولاحق العصاة وقطاع الطرق، ولإخضاعهم أرهقهم بالضرائب ولاسيما ضريبة المحضة، فثبته السلطان العثماني والياً على اليمن، وفي سنة ١٥٥٦م كلف ثانية مصطفى باشا بإدارة الولاية، وكان الجميع يخافه لشدة بطشه ولا سيما على اللصوص وقطاع الطرق.

**خامساً– ضم المغرب العربي:**

لم تكن أحوال المغرب العربي تختلف كثيراً عن المشرق العربي، فعلى أنقاض دولة الموحدين التي سقطت عام ١٢٦٩م قامت ثلاث دول صغيرة تقاسمت فيما بينها ملك المغرب، وهي: دول الحفصيين في تونس، وبنو زيان في المغرب الأوسط "الجزائر"، والمرينيون في المغرب الأقصى "مراكش". وصاحب هذا التفكك تنافس ونزاع بين هذه الدول مما أدى إلى طمع القوى الأوروبية المواجهة على الجانب الآخر من البحر المتوسط، ولاسيما الإمارات الكاثوليكية المتعصبة في شبه الجزيرة الإيبيرية التي كانت تزحف على ما بقي من ملك المسلمين هناك.

وفي أواخر القرن الخامس عشر تمكن الإسبان من تحقيق وحدتهم السياسية باتحاد إمارتي أرغونة وقشتالة، وتأكدت الوحدة بالقضاء على إمارة غرناطة عام ١٤٩٢م في الأندلس، والتحول من حرب الاسترداد في الأندلس إلى حرب الهجوم على أراضي المغرب العربي التي كانت تشكل الخدود الخلفية التي تحمي ظهر لمسلمين في الأندلس.

وإذا كان البرتغاليون قد ركزوا على مراكش وبدأت السواحل المغربية تسقط بأيديهم تباعاً، فإن الإسبان قد واجهوا نشاطهم الحربي ضد سواحل الجزائر وتونس وطرابلس الغرب "ليبيا" من أجل انتزاع السيطرة على البحر المتوسط من أيدي العرب والمسلمين.

وفي ١٥١٠ سقط ميناء طرابلس بيد الإسبان بعد صراع ومعركة دامية استشهد فيها ستة آلاف من الأهالي، واهتم الإسبان بتحصين المدينة، فجددوا بناء قلعتها، وبنوا حولها سوراً واتخذوها قاعدة لعملياتهم الحربية في المتوسط.

وفي عام ١٥٣٠ تنازل الإمبراطور شارل الخامس عن طرابلس لفرسان القديس يوحنا تعويضاً لهم عن خسائرهم في رودوس، وليكونوا سنداً لهم في معارك الإمبراطورية ضد العرب والمسلمين.

لم يكن التدخل العثماني في مناطق المغرب أمراً متوقعاً، ولم يدر في خلد العثمانيين أن يحققوا وجودًا يقلق دول أوربا الغربية لقرون عدة، وحتى سكان تلك المناطق لم يتصوروا وصول العثمانيين إلى ديارهم، وإخضاعهم لإدارة واحدة وتخضع لسلطان يأمر فيطاع، فكلنا يعلم أنّ المغرب العربي بأقطاره يعيش حالة صراع وانقسام فيما بين أسره المحلية من جهة، وأطماع الإسبانيين الذين اندفعوا فور طردهم للعرب من ديارهم للغزو والانتقام من جهة ثانية، كما أسهم الصراع في زعزعة الحياة الاقتصادية مع تدمير للقاعدة الاجتماعية، وانقسام كبير وعداء مخيف على الصعيد السياسي، وقد استفاد الاسبان من الصراع المحتدم على الساحة المغربية، وباتباعهم لأسلوب المرواغة والشقاق، تمكنوا من كسب بعض الأسر المحلية لصالحهم، هرباً من واقعها المضطرب.

ومع نهاية القرن الخامس عشر، حدثت تبدلات جذرية، حيث حلت أسر جديدة محل الأسر الحاكمة، يقابلها بالطرف الآخر رفض بعض القبائل ولا سيما البربرية الخضوع للسلطات الحاكمة، ففي الجزائر تلاشت سيطرة بني عبد الواد عن معظم الجزائر باستثناء وهران والقسم الغربي منها، وفي تونس اقتصرت سلطة الحفصيين على تونس وما جاورها، هذه التبدلات أسهمت في إنشاء دويلات صغيرة ومتعددة في بعض المدن الأخرى.

إنّ نشوء تلك الدويلات في الدول الرئيسة للمغرب العربي، وتزايد التدخل الإسباني في شؤونه الداخلية، وسع دائرة الصراع البحري والبري، وحول المتوسط إلى منطقة قتالية اتسمت بالانتقام ولا سيما بعد سقوط الأندلس سنة ١٤٩٢م، وبتوافد العناصر الأندلسية إلى مناطق وما لديها من خبرات زراعية وصناعية متطورة، وعمق الصراع وطبع بصفة الجهاد بالنسبة للطرفين العربي والإسباني وبحسب مفهوم كل منهما.

لم يكن الهجوم الإسباني على مناطق المغرب العربي لأسباب اقتصادية محضة كما يدعي بعض المؤرخين الغربيين؛ لأنّ خسائر الاسبان البشرية والاقتصادية تفوق مكاسبهم، وكان لوصايا الملكة إيزابيلا الأثر الكبير في استمراره واتخاذه الصفة الانتقامية العدوانية ما بين المسيحيين والمسلمين الذين عانوا الأمرين من محاكم التفتيش التي شكلت خصيصاً لهم.

احتدم الصراع على أشده بعدما تمركز الغزاة ((الأبطال)) الأتراك بقيادة عروج وأخيه خير الدين بربا روس.

إنّ الواقع الذي فرضه الإسبان على المغرب العربي ومناطقه آنذاك، لم يكن مقتصراً على تحقيق نفوذ سياسي ومكاسب اقتصادية، فالإسبان لا يقاسمهم النفوذ السياسي البرتغاليون، وما تطلع إليه سكان المغرب العربي العيش بهدوء محاولين تجنب الصراع والاقتتال، لأنّهم منذ الفتح الإسلامي وحتى مطلع القرن السادس عشر لا يعرفون الهدوء والاستقرار، فحياتهم قتال وانقسام وتحالف، أمّا الموارد الاقتصادية فليست وفيرة لدرجة تدفع الإسبان تجنيد قواهم البشرية وإمكاناتهم العسكرية لقتال أهاليه من أجلها، وعلى الرغم من ذلك فموارده بيد الإسبان والبرتغاليين، وهذا تأكيد مطلق على قدوم الإسبان إلى تلك المناطق لأغراض انتقامية، وإذا كان خلفاء إيزابيلا ولا سيما كارل الخامس (شارلكان) قد حاول الفوز برضا الكنيسة، فإنّ أبطال المغرب العربي أجبروه على رمي تاجه وصولجانه في عرض البحر اعترافاً بعجزه عن مقارعة المسلمين سنة ١٥٤٣م.

إنّ قدوم الأتراك إلى المغرب العربي برمج الصراع وحمّله طابع الانتقام، وأجبر خير الدين بربا روس الذي خلف أخاه في تولي أمرة القراصنة على مواصلة مهماته في حماية المسلمين والدفاع عنهم وعن ديارهم، وبغية ضمان حماية رسمية ولنقل الصراع من النطاق المحلي إلى النطاق الخارجي، قدم خير الدين الولاء إلى السلطان العثماني وبذلك يغدو الصراع رسمياً ودولياً ما بين إمبراطورية مسيحية يتولاها شارلكان، وإمبراطورية إسلامية يترأسها آل عثمان.

رحب السلطان سليم الأول بالعرض المقدم إليه من خير الدين بربا روس، وعلى الفور زوده بالإنكشارية ومنحه لقب بيلربي (بكلربكي) وتطورت العلاقة فيما بينهم، إلى أن اضطر الأتراك المشاركة الفعلية في مواجهة الإسبان وطردهم من أراضي المغرب العربي، فالإسبان خرجوا من الجزائر نهائياً منذ سنة ١٥٢٩م، وغدت بذلك أوّل ولاية عثمانية في الشمال الإفريقي.

تابع خلفاء خير الدين بربا روس صراعهم مع الإسبان ، وأصبحت العمليات الحربية بيد إستانبول وصاحبة الشأن هناك، وقد أدرك قادة إستانبول وحكامها أنّ تعميق نفوذهم وتثبيت وجودهم لن يتحقق إلّا بطرد الإسبان من تلك المناطق.

أمّا ليبيا فلم تتعرض للصراع الأُسري أسوة بتونس والجزائر والمغرب الأقصى، ولكنها لم تكن في منأى عنه، والإسبان كانوا يجهلون تماماً أوضاع ليبيا الداخلية حيث كانت تعيش حياة شبه

هادئة بفضل تكوين مجلس إداري، يدير الأمور فيها حتّى قدوم السفن الإسبانية سنة ١٥١٠م، دهش بحارة الحملة من جمال المدينة وغناها فقدموا تقريراً إلى الملك الإسباني الذي أمر بإعداد حملة بحرية لاحتلالها، وبالفعل سقطت المدينة بيد الإسبان في العام نفسه.

واجه سكان ليبيا مظالم كثيرة من الإسبان، ونظراً لما حل بفرسان القديس يوحنا–الذين طردوا من القدس وعكا على يد صلاح الدين الأيوبي ومن رودس على يد السلطان سليمان القانوني–وليظهر ملك إسبانيا حرصه على المسيحية وبتوجيه من البابا، قدم طرابلس الغرب هدية للفرسان، ومارس هؤلاء الفرسان الناقمون الظلم والاضطهاد على سكان البلاد، إلى حد لم يستطيعوا معه صبراً، فاضطروا إلى تشكيل وفد والتوجه إلى إستانبول لعرض شكواهم لسلطانها.

رحب السلطان بالوفد وأكرم وفادته، وكلف مراد آغا مع قلة من الجنود الإنكشاريين التوجه إلى طرابلس الغرب ريثما ينتهي من بعض المشكلات التي تواجهه على الجبهة الشرقية وفي آب سنة ١٥٥١م توجه الأسطول العثماني بقيادة القبطان سنان باشا إلى سواحل الشمال الإفريقي، وحالما وصل ضرب حصاراً حول طرابلس الغرب، وهدد الفرسان بالدمار ما لم يسلموا أنفسهم، وبعد مناوشات محدودة أيقن الفرسان بأنّه لا طاقة لهم على الصمود والمقاومة، فرفعوا الراية البيضاء تاركين طرابلس للقوات العثمانية لإدارتها وتنظيم الأمور فيها.

طرد الإسبان من ليبيا ومعظم الجزائر ولم يبق لهم إلّا تونس، وكان الإسبان يدركون أنّ خروجهم منها بات قريباً، وبالفعل ما إن سوت الدولة العثمانية بعض مشكلاتها على الجبهة الأوروبية والصفوية، حتى كلف السلطان العثماني أسطوله بالتوجه إلى تونس لطرد الإسبان منها وتحقق له الأمر سنة ١٥٧٤م، وهكذا أصبحت تونس الولاية الثالثة للعثمانيين في تلك المناطق، في حين بقيت مراكش (المغرب الأقصى) مستقلة، ولم تخضع للسيطرة العثمانية، على الرغم من وصول السلطات العثمانية إلى فاس عدة مرات وتراجعهم عنها بسبب المقاومة المغربية الضارية، واضطراب أوضاع العثمانيين في المناطق التي سيطروا عليها.

وهكذا خضعت معظم الأقطار العربية إلى السيطرة العثمانية وغدت الدولة العثمانية خلال تلك الحقبة التاريخية أعظم إمبراطورية، ففي الوقت الذي تزداد فيه الدولة العثمانية قوة ومناعة، كانت أوربا ولا سيما في النصف الأول من القرن السادس عشر تعاني انقساماً مريراً في أوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية نتيجة لبروز القوميات السياسية و الأوروبية التي ولدتها الحروب الإيطالية ١٤٩٤– ١٥٥٦م، والانقسام الديني وانهيار الهيمنة البابوية التي تحكمت في مصير العالم الأوربي لقرون عديدة، هذا الوضع المتردي لأوروبا، والتفوق العثماني المفاجئ، خلق في العالم الأوربي مشكلة عرفت بالمسألة الشرقية، حيث وقف ملوك أوربا وأمراؤها حيارى، يبحثون عن حلول لإيقاف الزحف العثماني المتنامي شرقاً وغرباً.

وبسيطرة الدولة العثمانية على معظم أقطار الوطن العربي أصبحت أعظم إمبراطورية في تلك الحقبة التاريخية، **<u>لكن هناك سؤال يمكن طرحه</u>:**

**هل نعد سيطرة العثمانيين على الأقطار العربية حكماً أم استعماراً أم تمرداً أم احتلالاً أم فتحاً؟**

*هناك اختلاف بين جمهرة المؤرخين حول هذا المصطلح أو ذاك، لكن لابد لنا من القول بالحقيقة*

بعيداً عن العواطف:

كلنا يعلم أن العثمانيين عندما قدموا المنطقة لم يأتوها كهداة إصلاح ديني، أو تخليص الدين الإسلامي من الأوهام والتي دخلت إليه (الدين الإسلامي بألف خير) عندما سيطر السلطان سليم الأول على المنطقة العربية عام ١٥١٦م .

فضلاً عن ذلك أن السلطان سليم الأول ١٥١٢- ١٥٢٠م لم يكن عالماً بالدين فهو شخص عسكري تربّى في أحضان الانكشارية.

وتؤكد معظم المصادر أن السلطان سليم الأول لم يدخل الجامع أو المسجد إلا بعد أن تولى عرش السلطنة وتخلصه من الكابوس الصفوي والمملوكي في (مرج دابق ١٥١٦م) وجالديران ١٥١٤م ، وإعطاء ولاية العهد لابنه سليمان القانوني الذي استلم بعد وفاته واستمر بالحكم من ١٥٢٠-١٥٦٦م.

لذا يمكن القول إن الأخطاء التي ارتكبت وترتكب الآن من القول بأن التدخل العثماني في الوطن العربي كان فتحاً أي أن السيطرة العثمانية للوطن العربي كانت فتحاً، ومن الممكن أن نتساءل لنرد على ذلك:

أ. كيف تفتح دولة إسلامية دولة إسلامية أخرى؟!

ب . أليس الفتح يعني عملية خلق جديدة للمنطقة؟!

ج . هل يمكن مقارنة معركة اليرموك بمعركة مرج دابق، أو معركة عين جالوت بمعركة مرج دابق؟!!!

د . ألم يقم العثمانيون بنهب وسلب خيرات الوطن العربي؟؟!!

. الضرائب التي أرهقت كاهل الشعب.

ـ ألم يسرقوا مقتنيات النبي محمد (ص) والصحابة وهل لهم ومن حقهم الآن الاستفادة من تلك العوائد والمقتنيات وتحريم الأماكن المقدسة في مكة والمدينة المنورة من هذا التراث؟

وبالتالي يمكن القول إن العرب المسلمين هم الذين علموا الأتراك الدين، لأن الأتراك ليس لديهم القدرة على فهم الدين الإسلامي مثل العرب لذا فالدين الإسلامي عربي الطابع والمضمون والصياغة والأداء فالعثمانيون قدموا فقط الدعم والمساندة. وباسم الدين الإسلامي سيطروا على المنطقة العربية نحو ما يقارب من ٤٠٠ سنة وسنتين من ١٥١٦ – ١٩١٨م.

رغم ذلك فالأتراك من قبل والآن يرفضون التساوي معنا كأمة لها تاريخ مشرف والعرب هم الذين علموهم الدين وبهذا الدين نالوا لقب الإمبراطورية العثمانية الإسلامية وفيما بعد في عهد السلطان عبد الحميد الثاني الحصول على لقب الخلافة الإسلامية.

ألم يقم العثمانيون بنقل عاصمة الخلافة إلى خارج نطاق الوطن العربي (عكس المماليك)؟

أليسوا هم من رفض التكلم بالعربية فكانت لغتهم (اللغة التركية) مستخدمة في كل دواوين الدولة وحتى داخل الولايات التابعة لها ومنها الولايات العربية؟

*ألم يفرضوا على الوطن العربي إطاراً من العزلة الحضارية والثقافية والسياسية، بينما كانت أوروبا في أوج نهضتها في القرن الثامن عشر والتاسع عشر.*
*وبالطبع خلف هذا بدوره التخلف والفقر.*

***<u>خلاصة:</u>***

*وبالتالي فالعثمانيون ليسوا بفاتحين ويمكن مقارنتهم بالاستعمار فعملهم واحد هو (التدخل العسكري والسيطرة والنهب للمنطقة). لذا فالعثمانيون غزاة اعتمدوا على الكر والفر كوسيلة لتعميق نفوذهم والسلب والنهب شعاراً لهم.*
*عندما نقارنهم مع الاستعمار فهم ليس لهم القدرة على البناء وإقامة أسس الحضارة التاريخية الراسخة، وكل ما كرسوه هو الجهل والتخلف (والزوايا والتكايا) التي رافقت الدين الإسلامي وأدت إلى حصول خلل لفهم الدين الإسلامي، وبالتالي فإن عطائهم وظلمهم كان آني لأن فكرة الوجود (البقاء) غير واردة في قاموسهم.*

*والدليل على ذلك عندما سيطر واحتل وفرض الفرنسيون الحماية بالقوة على الجزائر بواسطة الاحتلال ١٨٣٠ لم يحركوا ساكناً وأيضاً مصر احتلتها القوات الانكليزية ١٨٨٢ وتونس ١٨٨١م وهكذا الخ.*

***الميزة الوحيدة لهم:***

*١. حموا المغرب العربي من التنصير بعد طرد القوات الإسبانية لذا عدوهم فاتحين.*
*٢. لم يحاولوا تجزئة الوطن العربي لأن هذا لم يكن في صالح الدولة العثمانية.*